دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	العلوم الإنسانية والممارسات الاجتماعية
المصدر:	المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية
الناشر:	منظمة اليونسكو
المؤلف الرئيسي:	بوتينيه، ج . ب
مؤلفين آخرين:	رضا، أحمد رضا محمد(مترجم)
المجلد/العدد:	مج 13, ع 51
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1983
الشهر:	يونيو
الصفحات:	118 - 135
رقم MD:	355782
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EduSearch
مواضيع:	القيم الاخلاقية، العلوم الاجتماعية، المجتمعات الصناعية، العلوم الإنسانية ، العلاقات الاجتماعية، النظريات الاجتماعية، علماء الاجتماع، التحليل النفسي، الاستقراء
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/355782

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

العلوم الإنسانية والدراسات الاجتماعية

ليس من يصنع البلافون (١)
هو الذى يعزف عليه
ما يقال أثناء الصيد ؛
ليس هو ما يقال عند اقتسام السمك .
من أمثال منيانكا (مالى)

(مترجم من الفرنسية)

اخفاق العلوم الاجتماعية :

تقدمت العلوم الاجتماعية تقدما رائعا منذ قرابة أربعين عاما ، وهذا التقدم يعد من الأحداث الكبرى التى ميزت تطور المجتمعات الصناعية ، ويستدل على ذلك بانتشار المعارف سريعا فى النطاق الجامعى : فقد صار علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الأعراق البشرية (الاتنولوجيا) فى معظم الجامعات من الدراسات الأساسية .

(١) البلافون ، آلة موسيقية أفريقية ـ المترجم .

بقلم: ج. ب. بوتينيه

يتولى التدريس بمعهد علم النفس والعلوم الاجتماعية التطبيقية :
B.P. 808, 49005 Ongers, Cédex, France

ترجمة: أحمد رضا محمد رضا

كذلك انتشرت في الوقت نفسه أصول اللباقة في العديد من القطاعات المهنية . ولنفكر أولا في تلك الممارسة المهنية وهي العمل الاجتماعي الذي يتغيا تنظيم اطار حياتنا اليومية ، ونفكر أيضا في الرغبة المتزايدة لدى القطاع الصناعي في أن يستعيد العاملون فيه قدرتهم على المبادرة وتحمل المسئولية في ممارسة حرفتهم . ونشير كذلك الى المجتمع المدرسي الذي يفرض خبرته التربوية على علوم التربية المختلفة . نذكر أيضا ، وليس آخرا دور العلوم الانسانية في نشاطات التأهيل الدائم من أجل مساعدة الكبار على التكيف مع عالم مهني واجتماعي متطور .

لذلك لا يفوتنا أن نتساءل عن هذا القدر الكبير من العلوم الانسانية التي تشترك في حياتنا اليومية ، وكذا في حياتنا الخاصة . ترى ما هي الحقيقة في هذه الممارسة الجديدة ؟ وما هي متضمناتها ؟ وأية آمال تحملها ؟

يمكن فهم ممارسة العلوم الاجتماعية بمعنيين مختلفين : فاما أنها العمل الذي يضطلع به الباحثون لصياغة نظريات ، واما أنها تطبيق لمعلومات على بعض المواقف هذا التفسير الثنائي يضفي بعض الغموض على العنوان الذي اخترناه ، اذ لم نقع على عنوان آخر أكثر ملاءمة ، وهو « ممارسات العلوم الاجتماعية »

والواقع أننا سوف نستخدم بحرية هـــذا اللبس لابراز التباين المزدوج بين النظرية والتطبيق :

(أ) التباين بين معلومة تكونت علميا ، وبين معلومة مهنية تجريبية ، (ب) التباين بين انتاج فكرى ذى طبيعة رمزية وبين نشاط آلى ·

هذا التباين المزدوج فى العلاقات النظرية ـ العملية يشكل نوعا من التقـــاطع المستديم ·

وهذا النمط من التقاطع يطرح على بساط البحث صورة شائعة عن الانتقـــال الطبيعى التدريجى بين النظرية والممارسة العملية · ونحن على سبيل موازنة هـــذه الصورة ، نقدم بدأة ذى بدء افتراضا بأنه لا يمكن أن يكون هناك انتقال متصـــل غير محسوس بين النظرية والممارسة العملية ؟ وقد يؤدى أحدهما الى الآخر ، لا بدرجات غير محسوسة ، وانما بأجزاء منهاجية متقطعة ، ومن ثم فانهما كثيرا ما يكونان فى وضع تباين ، كما يكونان فى وضع تكامل ·

وفى هذه العلاقة الجدلية (الديالكتية) بين النظرية والممارسة العملية ، يأخذ افتراضنا الابتدائى فى اعتباره أن هذين القطبين المستقلين غير قابلين جزئيا للاتصال أحدهما بالآخر : فالنظرية التى لا تستند الى ممارسة عملية لا تلبث أن تتحـول الى أيديولوجية ، كما أن الممارسة التى ليس لها أساس نظرى لا تلبث أن يعتريها الجمود ·

هذه القضية التى طرحناها آنفا ، سوف تثبت صحتها بطريق العكس ، وذلك بأن نتناول كلا من القطبين على حدة ، ونستخلص النتائج التى تترتب على عزلته أو على اندماجه ، ثم نفرد فكرة خاصة لتلك الطبيعة المختلطة التى تتسم بها التقنيات · هذه الخطة تتيح لنا أن نواجه ـ على التوالى النقاط الاتية :

(أ) طبيعة النظرية فى العلوم الاجتماعية ·

(ب) خصائص الممارسات الاجتماعية ·

(ج) النظام الأساسى للتقنيات ·

وعلى هذا سوف نحاول الاجابة على الأسئلة الرئيسية التى تتبدى فى صـــميم العلاقات الانسانية من تطوير نظرياته ؟ كيف يتمثل المهنى الممارسة التى توجه عمله توجيها مفيدا ؟

هذا البحث لا يخلو من المبررات ، بل هو بالعكس يميل الى موقف راهن يتطلب منا الاهتمام : فالبحاث والمعلمون والمشتغلون بالعلوم الاجتماعية يعيشون حاليا فى زمن تتبدد فيه الأوهام ، زمن جاء فى أعقاب الانجازات العلمية الكثيرة التى دأبت منذ أكثر من عشرين سنة على أن تبشرنا بحدوث تغيير جذرى ـ الى حد ما ـ فى الحـــالة الحاضرة · ومع ذلك ، وبغض النظر عما يقال ، لم يتغير بالفعل أى شىء ، بل ان الوضع يبدو أنه قد عاد الى ما كان عليه ، حسب الصورة الأثيرة عند نيتشه Nietzsche « العودة الدائمة » ·

والعلوم الاجتماعية التى جعلت لنفسها منذ البداية مطامح برجماتية ، ان لم نقل مناضلة ، أصبح لا معدى لها من أن تعتبر وضعها الحاضر نوعا من الاخفاق ·

ونحن بالطبع ، اذا كنا قد وصلنا الى هذه الحال ، فان ذلك قد تم جزئيا بفعل البحاث والممارسين الذين افتتنوا بالعلوم الاجتماعية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، واستمر هذا الافتتان حتى السنين الأخيرة · وتدعونا النكسة الملحوظة التى نشهدها حاليا الى التساؤل عن طبيعة هذه العلوم والممارسات التى تعمل على انشائها · ويبدو لنا بنوع خاص أن مسألة العلاقات بين النظرية والممارسة العملية قد صيغت بعبارات تؤدى حتما الى طريق مسدود · ولذلك فسوف نحاول اجلاء الغموض الذى يخشى هذه العلاقات ·

طبيعة النظرية ،

فى العلوم الاجتماعية

الغموض فى العلوم الانسانية

اذا ركزنا انتباهنا أولا فى النتائج الحادثة تبين لنا أنها ليست متجانسة . فالعبارة التى تطلق عليها ، سواء العلوم الانسانية أو العلوم الاجتماعية شديدة الغموض، وذلك من وجهات نظر أربع مختلفة ·

ينبغى أولا الاشارة الى تغير المعنى تبعا لاختيار احدى الصفتين : انسانية أو اجتماعية · فلم هذه النزوة فى استخدام المصطلحات اللغوية التى تؤدى الى تنوعات فى فروع المعرفة ؟ من ذلك أنه رغم أن علم النفس يعد قسما من العلوم الانسانيه ، فانه كثيرا ما يعد على هامش العلوم الاجتماعية ، ولا شك بسبب المقابلة القديمة بين الفرد والجماعة ·

هذه النزوة يمكن بلا شك تفسيرها بأن العلوم الاجتماعية توحى بمفهوم جماعى، فى حين أن العلوم الانسانية تبقى فى الكثير من الأحيان داخل حدود فردية ونوعيه· وليس من شك أيضا فى أن مفردات اللغة كثيرا ما تقابل فى يسر بين العلوم الاجتماعية والماسات الاجتماعية دون تفرقة فى المعانى فى حين أنها تقابل بصعوبه بين العلوم الانسانية والممارسات الانسانية · من هذا نرى للتو الجوانب الانسانية التى يمكن استخلاصها من هذه المقابلة : فالممارسات الانسانية تدعو بذاتها للتفكير فى الممارسات اللا انسانية · ولا شك فى وجود هذه النواحى الاخلاقية ، ولكن رؤى من الأفضل اخفاؤها · ولا ننسى أن علومنا هذه كانت تسمى لزمن طويل علوما أخلاقية، فهى فى آن واحد علوم تدرس الأخلاق ، كما تدرس المبادىء الأخلاقية وقواعد السلوك·

ولعل هذا يفسر أن العلوم الانسانية ، فى نواحيها الوصفية تبقى الى حد كبير علوما معيارية من خلال المبادىء الخلقية القويمة التى يحاول كل انسان التمسك بها ، وكذا من خلال المبادىء السلوكية الصحيحة التى تتجلى من خلال الممارسات الاجتماعية، والمنازعات التى تثور بين مختلف المدارس الفكرية ، بعنف وتحيز ، فى مجالات علم النفس والاجتماع ، وكذا علم اللغات والاتنولوجيا ، هذه المنازعات تعبر فى كثير من الأحيان عن اهتمامات بالمعايير أكثر منها بالموضوعية ·

ونحن نفضل فى هذا المجال ، ودون أن نقطع فى هذا الجدل ، أن نتعرض لمخاطر المقاربة بين دلالات الالفاظ بأن نستخدم دون تمييز عبارتى « العلوم الانسانية » و « العلوم الاجتماعية » ، مراعاة للسهولة ، وتحاشيا للمجادلات المذهبية ·

وثمة التباس ثان نود أن نشير اليه ، ويتعلق بفلسفة العلوم ، ويمس النظام الأساسى للعلم : فالعلوم الانسانية ، هل هى علوم حقيقية ؟ وهل لها ما لسائر العلوم من صفات ؟ الاجابات على ذلك متضاربة . فالبعض ، مثل عالم الاجتماع فوجيرولاس Fougeyrollas يأسف لعدم وجود نمط تعبيرى موحد فى مختلف العلوم الانسانية بمكن أن يضعها فى مصاف المعارف العلمية الحقيقية . والواقع أن تجزئة المعارف لا تقل فى علوم الطبيعة عنها فى العلوم الانسانية ، وقد يصبو العلم الى شكل تعبيرى موحد ، فقط اذا وضع حدودا لموضوعه وأساليبه . هذا التوحيد هو نوع من الأمنية والغرض المنشود ، ولكنه غير قابل للتطبيق ، وعملية المعرفة ، مثلها مثل البنيان الموضوعى الذى تخضع له المعرفة ، يبقى دائما عملا مجزوءا .

وثمة آخرون يعتبرون أنه لا يمكن تحويل العلوم الاجتماعية الى علوم الطبيعة ، اللهم الا اذا أريد تحريفها ، وهذا هو الجدل الكبير الذى شغل العلوم الاجتماعية فى المانيا فى الستينات . وقد اراد أدورنو Adorno ، وهابرماس Habermas مع مدرسة فرانكفورت أن يجعلوا للعلوم الاجتماعية بعدا نقديا لا يختزل ، بعدا لا وجود له فى علوم الطبيعه .

وآخرون ، أكثر ميلا الى الوضعية ، كأنصار مدرسة فيينا ، ومعهم المنطقى بوبر Popper يعتبرون أن العلوم الاجتماعية يجب أن تستعير قواعدها ، بدرجة جزئية على الأقل ، من علوم الطبيعة ، وأنه ليس ثمة معرفة علمية خارج هذه القواعد .

فى هذا الجدل فى شأن طبيعة العلوم الانسانية جرى بكيفية مماثلة فى فرنسا ، فى نطاق علم النفس . واعترض السلوكيون الحريصون على المنطق التجريبى ، اعترضوا على المحللين النفسيين أنصار المعالجة التطبيقية (الاكلينيكية) ، فالأولون أدخلوا علم النفس من جديد فى نطاق علوم الطبيعة ، فى حين اعتبره الآخرون مختلفا اختلافا جذريا بسبب وجود أنماط سلوك رمزية . ومع ذلك لم تنجح محاولة التوفيق التى قام بها لاجاش Lagache فى زمانه لوضع حد نهائى للنزاع بين المذهبين فى فلسفة المعرفة .

أما اللبس الثالث فانه يتعلق بحدود المعرفة بين العلوم الاجتماعية والانسانية . هل يمكن الكلام عن نواة صلبة تتكون من علم الاجتماع ، والسلالات البشرية (الاتنولوجيا) . والتحليل النفسى ، واللغات ؟ و لاشك أيضا من ضرورة ادخال علم النفس فى هذه المجموعة ، حتى اذا كان المدافعون عن العلوم الاجتماعية يخصونها كثيرا بدور العلم « الزائف » ، لأن علم النفس يهتم بسلوك الأفراد ، وكأنه يمكن فصل دراسة سلوكيات الأفراد عن سياق أحوالهم . ولكن ما القول فى التاريخ ، والجغرافيا ، والآثار ، وطب الأمراض النفسية والعقلية ، والاقتصاد ، والسياسة ؟ .. قد تكون هذه العلوم موجودة أحيانا فى اهتمامات العلوم الاجتماعية ، وأحيانا أخرى غائبة عنها . معنى هذا القول أن هذه الحدود متحركة ، فاذا كان من المتاح رؤية بداية هذه العلوم ، فمن الصعب معرفة أين تنتهى .

ويتبين أخيرا غموض العلوم الانسانية فى انعدام التفرقة بين مستويات مختلفة فيها . فهذه العلوم تدل فى وقت واحد على معلومات نظرية ، وطرق البحث ، وتقنيات عملية . وتعامل هذه العلوم أحيانا تبعا لموضوعها الدراسى (وفى هذا يجرى الحديث عن علم النفس الاجتماعى ، وعلم اجتماع المعرفة ، والاتنولوجيا الاقليمية ..) ، وأحيانا تبعا للطريقة المستخدمة (علم النفس الاكلينيكى الذى يتميز عن علم النفس التجريبى ،

وعلم اللغات التركيبى فى مقابل علم اللغات التصنيفى (، وأحيانا حسب الممارسات المهنية التى تتيحها من خلال العلاج النفسى ، والتحليل التنظيمى ، والتعرف على الحوافز ·· وثمة مصطلح مثل « التحليل النفسى » يحيل الى المفاهيم الثلاثة التى أوضحناها آنفا ·

ومصطلح « أخصائى علم النفس » و « أخصائى علم الاجتماع » يعد كل منهما أنه يصف نشاطات متفرقة ، مرتبطه بالبحث والتعليم والتأهيل والعلاج ، واستعمال تقنيه أو أخرى · ثم ان عددا كبيرا من المشتغلين بالعلوم الاجتماعيه يجمعون فى أشخاصهم كل هذه النشاطات · هذا الثراء الأكيد فى مضامين العمل له عيوبه فى التداخل المستمر لمناسيب النظرية والتطبيق ومجالاتهما · ومع ذلك فان هذا الخليط من النشاطات العلمية كثيرا ما يحل محل الغموض وانعدام الدقة ·

ونحن كلما تكلمنا فى هذا المقال عن العلوم الانسانية أو الاجتماعية ، فاننا نعنى دائما المفهوم الاصلى لمعرفة تتعلق بالانسان والمجتمع ، ويشمل هذا المفهوم الأطر النظرية والمنهاجية التى تبنى هذه المعرفة ، ويستبعد سائر المظاهر المتعلقة بالممارسة·

صياغة النظريات فى العلوم الاجتماعية ، وطبيعتها :

لا شك فى أن هذه الضروب المختلفة من الغموض هى التى تستثير موقفا كثيرا ما يكون مبيرا تجاه الجهود التى تبذل فى صياغة النظريات ، وهو موقف اما سلبى بالرفض القاطع او ايجابى بالحماس المنهاجى وفى هذا سوء فهم لعملية صيغه النظرية وهى عملية متواضعة بالنسبة الى سائر العمليات ، وتستبين بخصائص أساسية ثلاث ·

تتعلق الخصيصة الأولى بضرورة النظر عن بعد الى الواقع الذى تجرى دراسته ، والذى لا يمكن رؤيته مع كل ما به من تعقيدات ، الا من وجهة نظر واحدة · وعلى ذلك فان دور صياغة النظرية هو ايضاح موضوع ما من زاوية خاصة ، وهذه الزاوية هى التى تعرف نطاق المشكلات التى تتضمنها الدراسة ·

والخصيصة الثانية تتمثل فى أن هذا البنيان يميل الى الموضوعية ، فهو يتغيا أن يعطينا تصويرا أكثر موضوعية من التصوير الذى كنا نتمثله عن الواقع حتى ذاك الحين · والمظهر الموضوعى بنوع ما للبنيان يختبر دواما بالمقابلة بينه وبين الواقع · وفى هذا الخصوص تحاول النظرية أن تأخذ فى اعتبارها أقصى قدر من الوقائع الملحوظة وفى وسعنا أن نستنبط من ذلك نتيجتين متناقضتين :

فالنظرية من بعض النواحى تصوير لا يمكن تخطيه ، من حيث أنها تركز على صميم الواقع الملاحظ الذى لا سبيل الى انكاره ، وهذا ما حمل سارتر على القول بأن الماركسية لا يمكن تخطيها ، وهو واثق من أن الانقياد للغير فى العمل، والصراع الطبقى فى المجتمعات الصناعية يشكلان مجموعة من النويات الصلبة ، مثلها مثل الكشف الذى أجراه فرويد لمعنى سلوكيات الأفراد ، ونسبتها الى العقل الباطن الذى لا يمكن تجزئته ·

والنظرية ، من وجهة نظر أخرى لا تمثل سوى خطوة واحدة فى ذلك البنيان البطىء للموضوعية ، وتتبع هذه الخطوة بدرجة كبيرة الظروف الاجتماعية التاريخية السائدة ، ومصير كل نظرية أن تخلق نظريات مضادة أكثر ملاءمة ، واذا بدا لنظرية أنها غاية فى ذاتها ، كما فى العديد من الانجازات الانسانية ، فانها تنحدر الى نطاق

البراجماتية ، وتنتج عقيدتها الخاصة ، وقد نزع الماركسيون : والمحللون النفسيون نحو هذا النمط من الشرود الفكرى بسعيهم الى تمجيد أب مؤسس ، بدلا من وضع انجازاته فى مسار الحركة الديالكتية التى تنبنى بها الموضوعية ·

والخصيصة الثالثة تتعلق بوظيفة النظرية باعتبارها مرجعا · وقد رأينا بناء نظريا يأخذ وضعا مستقلا بالنسبة الى الواقع ، ومن ثم يميل الى الاكتفاء بذاته · ومظهر الاكتفاء الذاتى الخاص بالنظرية لابد ان يطرأ عليه تصحيح بالرجوع المتواتر الى الواقع : فوظيفة المرجع تضفى على النظرية مظهرها العملى اذ يتسنى لها أن يفسر الأحداث الملحوظة تفسيرا مناسبا · واذ يتبين للنظرية أنها لا تستطيع أن تفسر كل الاحداث الملحوظة ، وأن هناك مناطق فيها غموض ، فانها تتجرد من ادعاءاتها بالجمع والشمول ·

وهكذا فمن خلال صياغة النظريات ، نقدر أهمية هذه الحركة الثنائية : فهى من جهة حركة تباعد عن الواقع ، ومن جهة أخرى عودة الى الواقع ، وبهذا الثمن يتم لها اكتساب الموضوعية ، وصياغة النظرية تحتفظ فوق ذلك بشىء من هذه الحركة ، من حيث أنها تدعى بصورة متعارضة أنها فعالة ، وأنها خيالية فعالة على مستوى الموضوعية التى اكتسبتها ، وخيالية من حيث امكانية تجاوب هذا المستوى ·

وظائف صياغة النظرية
فى العلوم الاجتماعية

بعد هذا التعريف الموجز لطبيعة العمل النظرى ، يتعين علينا الآن أن نفحص مكوناته ·

ومع احتمال ظهورنا بمظهر تخيرى ، فسوف نحاول تنسيق التعارض الذى أشرنا اليه آنفا بين أنصار المعرفة العلمية المستوحاة من علوم الطبيعة ، وأنصار المعرفة العلمية المتمثلة فى الموضوع الخاص بدراستها : الا وهو الانسان ·

الانسان ، ومعه مجموع الحقائق الانسانية والاجتماعية ، تشكل كلها قسما من الظاهرة الطبيعة ، كما تشكل معطيات تجريبية تطورت · وتحولت على مر الزمان على غرار الطبيعة نفسها · ومن المسوغ تماما ـ ، من وجهة النظر هذه ـ تطبيق أساليب المعالجة التى تستخدمها علوم الطبيعة فى دراسة الحقائق الانسانية ، بشرط التوفيق بينها وبين نوعية موضوعها · كذلك نعلم أن البحوث فى علم السلالات البشرية ، وعلم النفس الحيوانى قد ساعدتنا كثيرا فى تفسير السلوك البشرى وتفهمه فيما يشبه سلوك الحيوان ، وفيما يختلف عنه · مثال ذلك البحوث فى شأن التكيف ، والتعلم ، والانطباعات الحسية ، والسلوك الخاص بالتأهيل الاجتماعى ·

على أن الانسان يبرز فى الوقت نفسه من الطبيعة بنوع من الانفصال الثقافى من خلال ثلاث وظائف بشرية نوعية : تلك هى « الانسان العاقل » Homo sapiens و « الانسان المتكلم » Hom looquax ، و « الانسان الصانع » Homo faber ومن هذه الناحية لا يتسنى فهمه الا بأسلوب يأخذ فى الاعتبار هذه الطبيعة النوعية هذا الأسلوب الذى كثيرا ما يسمى بالاكلينيكى ، أو النقدى يقوم على منطق التفاعل ، كما أشار اليه بحق هابرماس Habermas ·

ومع ذلك لا تبدو لنا فكرة تمييز النظريات على أساس هـذا التفرع الثنائى مناسبة ، اذ يخشى عن طريقها الوقوع فى الغلط القديم الذى يتمثل فى الثنائى : الطبيعة / الثقافة ، ونفضل أن نميزها على أساس العمليات العقلية التى تستخدمها . وفى هذه الحالة يتسنى لنا أن نلاحظ أن النظريات تتولى أحيانا الاستكشاف ، وأحيانا التبرير العقلانى (بتحويل الواقع الى نموذج) ، وأحيانا النقد .

الوظيفة الاستكشافية

للعلوم التجريبية ـ الاستقرائية

تهتم العلوم التجريبية أول كل شىء بملاحظة الواقع كما يتبدى ، ولما لم تكن مدعمة بسند نظرى ، فانها تعمل على اختيار الوقائع ، وتبعا لمستواها من حيث المتطلبات فانها تتبع منهجا من المناهج المنطقية الثلاثة التالية :

ـ وصف حقل من حقول الملاحظة . من المعروف أن العلوم الاتنولوجية قامت على أساس الملاحظة الميدانية الدقيقة ، وسجلت النتائج فى رسالات علمية ، تمثل كل رسالة منها دراسة لحالة ، يشهد بذلك الأعمال الاتنولوجية الاولى التى أجراها ليفى شتراوس Lévi-Strauss ، وكذا الأعمال الاتنولوجية اللغوية لسابير وويرف Warf .

ـ أو تصنيف ما يلاحظ تبعا لبعض المعايير الموضوعة مسبقا . هذا النوع من التصنيف الذى يتيح تطبيق منطق الشبيه والمختلف يؤدى الى وضع نماذج تصنيفية مختلفة ، وتستخدم دراسات الشخصية هذا الاسلوب بحماس (مثال ذلك : تصنيفات She.don ، وكرتشمير Kretschmer ، ويونج Jung ، وجيلفورد Guilford وكاتل Cattel ...) ، ولكنا نجد أيضا هذا الاهتمام بالتصنيف فى بعض الاعمال الاتنولوجية ، كأعمال بنيدكت Benedict ، أو ميد Mead . نجدها أيضا فى بعض الأعمال الصوصيولوجية (ريسمان Riesman ، مثلا) .

ـ أو تفسير ما يلاحظ اعتبارا من فرض مسبق يستهدف تقديم علاقة سببية بين العديد من أنواع الظواهر الملحوظة . هذا النمط من المنطق استعمله كثيرا السلوكيون فى الاعمال التجريبية التى قاموا بها ، وقد صيغت نظرية التعلم السلوكى جزئيا بفضل هذا الاسلوب . ونجد الأسلوب نفسه فى العديد من دراسات علم الاجتماع .

الوظيفة التبسيطية

للعلوم الفرضية الاستنباطية

هنا ، لا يقتصر الفهم على مجرد عزل الوقائع لدراسة ما بينها من علاقة تبعية ، بل يشمل أيضا تركيب نموذج منطقى افتراضى ، يبسط الواقع الذى يماثله . هذا المنهج أقوى بداهة من المناهج الثلاثة السالف ذكرها ، ولكنه يفترضها مقدما لكى يمكن تطبيقه ، ويستهدف حسب الأحوال ، اما تأكيد مجموعة من القضايا واما نفيها :

ـ تأكيد الاطار الفرضى الاستنباطى . المقصود هو مواجهة القضايا المستنبطة من الفروض الأساسية ، مواجهتها بالواقع ، مع احتمال تعديل هذه القضايا بالتالى اذا لم يثبت أنها مطابقة للواقع . وعلى هذا النحو جرت معظم الدراسات البنيوية

(أو التركيبية) • ونجـد لذلك مثـالا مقنعا فى نموذج شـومسكى Chamsky للقواعد اللغوية ، التركيبية والتحويلية ، وكان غرضه ان يقطع صلته بالاساليب التجريبية للتيارات اللغوية السابقة وبدلا من تجميع ملاحظات لغوية ، فانه يعمل على بنـاء اطار منطقى يأخذ فى اعتباره استخدام لغـة طبيعية بكيفية ملائمة • وتوضح التعديلات المتتابعة التى أجراها على صياغة نموذجه الأول هذا المنهج فى صياغـة النظريات •

– نفى الاطار الفرضى الاستنباطى • ليس القصد اثبات أن قضية ما حقيقية ، اذ ليس هناك ما يضمن الا تأتى تجربة لاحقة فتنفى القضية المذكورة • المهم ، على العكس من ذلك هو اثبات بطلان القضية لدحضها نهائيا ، والبحث عن اطار فرضى استنباطى أكثر وفاء بالغرض •

ويتضمن منهاج الدحض هذا الذى طوره عالم المنطق بوبر Popper وأطلق عليه اسم « قابلية الدحض » قوة بديهية كبيرة ، ويتيح أكثر من اى منهاج آخر اختبـار مدى صحة أية نظرية • مثال ذلك أن نظرية « التكاثر الاجتماعى) لبورد Bourdieu يصعب دحضها بالبديهيات الايجابية ، ولكنها تدحض بسهولة ببديهيات سلبية •

الوظيفة النقدية للعلوم التفسيرية

ننتقل مع العلوم التفسيرية الى مستوى آخر من تحليل الواقع • هنـا نبدأ من البديهة التى تقول ان التناقض موجود فى صميم كل واقع انسانى • هـذا التناقض لا يمكن ادراكه بحدود عقلية ، ولكن يمكن كشف النقاب عنه ، واظهاره للعيـان لأنه مختبىء تحت ظواهر الأحداث الواقعية اليومية التى هى التعبير الواعى لعملية لا واعية فى أساسها هذا هو السبب الذى من أجله عرفت هذه العلوم التفسيرية بأنها علوم الشك والنقد التى تتغيا كشف النقـاب عن الازدواج الكامن فى الواقع الانسانى • ولعله من المفيد الاشارة الى أن هذه المعرفة النقدية التى تتعلق بغموض الافعال قد نمت خارج الجامعة (وخاصة فى أعمال ماركس وفرويد على سبيل المثال) •

ويخضع منطق العلوم التفسيرية لقاعدة التفاعل الاجتماعى ، فمثل هذا التفاعل هو الذى يكشف عن ازدواج » ومن ثم فان معرفة الواقع الانسانى والتناقضات التى تتحرك فيه تغير فى الوقت نفسه من هذا الواقع وتؤثر فيـه • فلا يمكن الكشف عن هذا الازدواج دون تعديله بصورة ما ان لم يتسن محوه تماما •

ولا حاجة بنا الى الاسهاب فى الحديث عن أساتذة الشك الثلاثة الذين حاول كل منهم بطريقتـه أن يكشف عن غموض السـلوكيات الانسـانية : نيتشـة ، من خلال سوء النية الكائن فى صميم الوجود الانسانى ، وماركس ، مع الشعور الكاذب الذى يتمثل به الأفراد موقفهـم ، وفرويد ، فى اللاوعى الذى يتحدث به الأفراد عن نفسهم •

ولنترك جانبا نيتشه الذى لم يستخلص من معالجته الانثروبولوجيـة نظـرية نفسية اجتماعية ونتأمل فى ماركس وفرويد اللذين وضعا نظريات نقدية لم تسـتطع تحولات أنصارهما أن تشكك فيها •

ومن خلال محاولة المنهاج التفسيرى صياغة النظريات ، يتبين لنا أن هـذا المنهاج على عكس المناهج السابقة ، منهاج زمنى • فالزمن باعتباره الستارة الخلفية

للاحداث الانسانية ومتناقضاتها يصير موضوعا علميا بطريقتين : طريقة رجعية في التحليل النفسي الذي يعمل على تفسير الماضي الذي هو حاليا مصدر للاضطراب ، وطريقه تقدميه ، في الماركسية ، وهو موضـــوع علمي أيضا في دراسة المظاهرات (الفينومنولوجيا) ، من أجل التصدي للمستقبل بتدبير اتجاه خاص له . وتفسير الحاضر اذن ، هو كشف عن المستقبل الذي يحمله الحاضر في طياته .

هذا المنطق التفســـيري ، أو منطق المعنى الخفي للواقع الذي يتعين كشـف النقاب عنه ، هو منطق الزمن الذي يعيشه الانسان ، هو نموذج الأحداث السابقة ، واللاحقـة . وليس من شـــك في انه يجب في هـــذا المنطق ضم فلسـفة العلوم (الابستمولوجيا) التي تستهدف الكشف عن ظروف اصدار نص علمي ، وبالتـالي معنى النص وقت صدوره ، وهكذا تصير الابستمولوجيا ما سماه باشلار Bachelard تحليلا نفسيا للمعرفة الموضوعية .

لقد حاولنا من خلال هذا الملخص السريع أن نرتب مختلف المناهج التي يقـوم على أساسها كل صياغة نظرية ، وأجرينا ذلك بطريقة تصنيفية انطلاقا من أبســـط الأساليب وأقلها حفزا للاستكشاف ، ثم اتجاها صوب المنطق الأكثر تعقدا . وفي هذا السياق يبدو من الأفضل مواجهة نماذج متداخلة تبعا لمنطق متزايد التعقيد .

الاختلال في صياغة النظريات

صياغة النظريات كما رأينا من قبل ليست عملا متسقا لا غموض فيه ، فعلاقته الثنائية بالمعرفة والواقع تتنوع كثيرا تبعا للمستوى الذي تعمل عنده .

ويبدو لنا أن هناك ثلاثة مخاطر كبرى تهـــدد صياغة النظريات ، تتمثل في الانفصال المنهاجي عن الأوضاع التي يرجع اليها (أي المراجع) . واذا كنا قد تحدثنا بعاليه عن ضرورة الانفصال المنهاجي ، فقد قلنا أيضا ان هذا الانفصال يجب أن يعقبه رجوع الى الواقع للتصديق على القضايا المصوغة وتأكيدها .

على أن النظرية تميل الى الانفصال عن الواقع العملي أكثر من الرجوع اليه . عندئذ تصير النظرية وعاء فارغا ، أي مجموعة مغلقة من الاشارات التي لا مرجع لها . ويؤدي بنا هذا الى اعتبار الشيء المجرد ماديا . ترى كم من اشارات خالية من أي معنى تشيع في الأعمال التي تحاول تبسيط انجازات العلوم الانسانية وتعميمها ، اشارات منقطعة الصلة بالواقع الذي هو وحده القادر على أن يكسبها معانيها !

وليس للنظرية معنى في ذاتها ، ليس لها سوى ترابط منطقي يعكس مبـــدأ عدم التناقض ، وتأخذ معناها وملاءمتها للموقف الخاص الذي استثار صياغتها . معنى هذا القول بأن عددا كبيرا من النماذج المعقدة المشتقة من نماذج أولية ، في مجال البنيويه (أو التركيبية) ، والتحليل النفسي ، والماركسية هي في الكثير من الأحيان آليات تدور في فراغ لأن بينها وبين الأحداث الواقعية صلات واهية .

وثمة أثر سيء يتربص بالنظرية ، ذلك هو منهاجيتها ، وميلها الشـــديد الى العقيدة السوية : فبدلا من أن تبقى النظرية مجموعة من القضايا المفتوحة ، فانها تتحول الى قاعدة من قواعد الفكر الصحيح . على أن هذا الأثر السيء هو في الكثير من الأحيان نتيجة للأثر السابق : اذ لما كانت النظرية لا تريد أن تختبر بالواقع ، وترفض أن

تؤدى دورها العملى ، فان القضايا التى تكونها تنغلق على نفسها ، وكأنها علامات مقفلة · والمجادلات الحديثة التى شغلت أعضاء المدرسة الفرويدية تصوير جيد لهذا الاتجاه ، فهى تشكل على الأقل دلالة على الحالة المتقدمة من الانحلال الذى أصاب النظرية المشار اليها وهكذا تتحول الارثوذكسيه العلمية الى ايديولوجية ·

وآخر نزعة مغرية تفسد العديد من النظريات هى الرغبة فى خلق ممارسات تطبيقيه ، وسوف نناقش هذه الخصيصة فيما بعد · وقد ظن البعض ، فى المجال الاجتماعى ، أنه فى الامكان ، بل من المرغوب فيه أن يطبق على الممارسات العملية الأسلوب العقلانى الخاص بالنظريات · ونتيجة لذلك نشأ حول العمل الاجتماعى مهن قائمة على هذا الأسلوب العقلانى ، تتغيا تطبيق نظريات التحليل النفسى ، وعلم النفس وعلم الاجتماع ·· المستوعبة فى مدارس المعلمين ، والاخصائيين الاجتماعيين ·· وتسعى النظرية الى خلق أسلوب عمل سليم يسيطر على الممارسات المهنية ويتحكم فى الواقع ، وهكذا تبرز هياكل مجتمع شمولى قائم على العلم ·

وفى الانتقادات الموجهة الى العلوم الانسانية يتردد كثيرا الاتهام بالنزعة « الاختزالية » ، غير أن هذا الاتهام ، مهما كان مشروعا ، فانه كثيرا ما يكون فى غير محله · والواقع أن النعى على معرفة علمية بأنها « اختزالية » هو دعوى سيئة ، ذلك لان الاختزالية هذه هى « علة وجود » المعرفة حتى تدرك جيدا تعقد الواقع · والأمر السيء ، على العكس من ذلك ، هو أن اهتمام العلوم الانسانية المفرط بممارسة مهمة عملية بارزة ، يخلق ممارسات مهنية ذات طبيعة اختزالية · ويبدو لنا أن المشكلة الأساسية تقوم على هذا المستوى ، فليس فى الامكان حقا أن ينعى على العلم طبيعته العملية ، الا أن هذه الطبيعة مهما كانت نافعة فانها لا تكفى البتة لخلق ممارسة اجتماعية · فالممارس يتعين عليه دائما أن يتلقى بكيفية نقدية التغيير الذى يفرضه عليه من الخارج عالم النظرية وعليه أن يوفق بين هذا التغيير وبين المقاومة التى يبديها الواقع · وفى هذا الصراع لا يمكن معرفة من الخطىء ومن المصيب وعلى الممارس أن يقرر ذلك فى نطاق عمله · وعلى ذلك فالممارس ، على عكس الاعتقاد الشائع فى الممارسات الاجتماعية ، هو عامل من عوامل الحفظ ، كما هو عامل من عوامل التغيير ·

وفى عصر يتيسر لنا فيه أن نقيس بمزيد من الدقة نتائج فقدان الاستقرار الثقافى فى مجتمعاتنا الصناعية اللاحقة ، وفى بلاد العالم الثالث النامية ، لابد من الاعتراف بأن طبيعة الأشياء معقدة ، وأنها فى عملية « التجربة والخطأ » تلتمس الذكاء العملى لدى المهنيين ·

خصائص الممارسات الاجتماعية :

ما سبق لنا قوله يؤدى بنا مباشرة الى تميز الممارسة العملية · وكما أدت بنا النظرية بطبيعة الحال الى الحقائق المهنية ، كذلك تتيح لنا الآن دراسة الممارسة العملية أن نتفتح على عالم النظرية النرى فى النهاية الطريقة التى يتصل بها أحدهما بالآخر ·

منطق الممارسة :

الممارسة ، كما تسنى لنا قبلا أن نكتب عنها ليست محدودة بانتاج poièsis بالمعنى الارسطاليسى (نسبة الى أرسطو) (لهذه الكلمة ، ولكنها أول كل شىء عملية

غير محدودة ، لا نهاية لهـا ، عملية pravis حسب تعبير أرسطو أيضا ، أى عملية تحسين مستمرة · ويشير ماركس الى انتاج بشرى ، يحـول به الصانع الطبيعـة بطريقة تتمشى مع ثقافته ·

فاذا كان من الضرورى التمييز بين ال Maxis وال praxis فان فصلهما ، كما أراد أرسطو أكثر صعوبة ، هذان المظهران موجودان فى أية ممارسة ، وغايتهما اقامة علاقه ديالكتيه بينهما ، فالممارسة (أى التطبيق العملى Praxis لا تستغنى عن ال Poiesis أى الأشياء التى يراد ترتيبها ، والمنتجات التى يراد صنعها · هذه الأعمال والمنتجات اذ تجسد ال poiesis فانها فى الوقت ذاته مؤشرات تسـتخدم لتقييمه ·

وعلى ذلك فكل نشاط مهنى يتضمن ممارسة عملية praxis تكسبه معنـاه ومشروعيته · هذا ال praxis يعبر عن ديناميكيـة النشاط ، واتجاهه ، أى مشروعه ، ويمر حتما خلال الأعمال ، ولكنه لا يتوقف عندها حتى لا يضطرب وهـذا ما يحدث للممارسات الاجتماعية التى تستخدم المؤشرات عندها النظمية دون أن تتوقف عندها : مثال ذلك أن عدد بيوت المسنين فى منطقة ما تابعة للخدمة الاجتماعية ، ورفع الميزانية المخصصة لمعاهد الطب العلاجى ، ورفع نسبة النجاح فى المدارس ، وزيـادة عدد الأسرة فى المستشفيات الخ ·· هذى كلها ، فى منطق الممارسة مؤشرات غامضة · وهى فى أحسن الحالات صورة تقريبية للممارسة Praxis ، وهى فى أسوأ الحالات تعبر عن انحلال ال Praxi حين يميل الى مطابقة ال poièsis ·

أما بخصوص ال Poiesis الذى يشكل عملا ما ، فانه يتكون من ذلك الذى يسـميه المدرسـيون (أو السـكولاستيون) « **طريقة العمـل** » modus operandi وسير العمل . opus operatum وهى طريقه عمل منظم تؤدى الى الانتاج النهائى · ولما كان العمل يقبل منذ البـداية علاقة ديالكتية بين طريقة العمل modus operandi وبين سير العمل opus operatum فانه يقبـل التبعيـة للبراكسس Praxis الذى يوجه الممارسة ، ويظهر انتاج الأعمال على فترات غير منتظمة · وطريقـة العمـل modus operandi تستخدم على نطاق واسع « التقنية » « technè » التى تتكيف بوساطتها ال épistème (المعرفة ، الادراك) ، أى الفكر النظرى مع أكثر الطرق ملاءمة لبلوغ الغاية ، أى العمل المطلوب أداؤه ·

الظروف التاريخية لتطور الممارسات الاجتماعية :

نشأت الممارسات الاجتماعية من الناحية التاريخية ، بالتحام النماذج العلميـة التى أعدتها العلوم الانسانية بالأدوات التكنولوجية · وفى هذا الخصوص كشـف نموها عن مبدأ عام لمجتمعنا الـ تكنولوجى : ذلك هو الاتحاد الوثيق بين العلم والتقنية لاحداث الثورة الصناعية ، أو ما أطلقت عليه دراسة حديثة عبارة « المركب العلمى - التقنى » والحضارة التقنية بهذا المعنى هى نتـاج التطبيق المنهاجى لمفهوم عقلانى للعالم · وتبادر للأذهان أن هذه العقلانية التى نجحت فى السيطرة على الطبيعة ، وغيرتها يمكن تطبيقها بالكيفية نفسها على الممارسات الاجتماعية ·

وهكذا حاول البعض انشاء ممارسـات مهنية انطلاقا من مجموعة من المعارف وأخرى من التقنيات ، وهذا صحيح بنوع خاص فى مجال العمل الاجتماعى حيث يجد الممارسون لهذا العمل مشقة فى المطالبة بهوية مهنية خاصة بهم ، خارج المعارف

النظرية التى تضـــع لممارستهم الأطر والضـــوابط ، وهو صحيح أيضـــا بالنسبة الى مهنة التعليم التى تقع أكثر فأكثر فى شباك المجمع التربوى ـ العـلمى ـ التقنى . وفى الامكان ذكر المزيد من الأمثلة التى توضح كيف أراد البعض أن يستنسخ حرفيا ما يزاول فى علوم الطبيعة وتكنولوجياتها وانتهى الأمر عندئذ الى ألوان من الضلال حلت فيها المعرفة محل الممارسة فصيرتها عقيمة .

هذه السيطرة التى تمارسها المعرفة على العمل ، تتواتر فى مختلف الممارسات المستوحاة من التحليل النفسى ، والسلوكية ، والماركســية ، والبنيوية . هــذه الممارسات جعل لها بنيان تكنولوجى من خلال معالجـــات تحليلية أو سلوكية ، وتقنيات خاصة بالتنظيم الجماعى ، والديناميـات الجماعيـــة ، والتعليم المبرمج ، والتحليل البنيوى ، والتحليل التنظيمى ، والتقنيات غير التوجيهية . ولا ننسى فوق كل شىء مختلف تقنيات التعبير البدنى التى تتغيا تعليمنا خلال دورة من ثلاثة أو أربعة أيام كيف نعرف حقيقة أجسامنا ونشاطها الجنسى .

كل هذه الأمثلة توضح مدى اهتمام النظرية بانشاء ممارسة جديدة أكثـــر من اهتمامها بأداء دورها النقدى حيال الممارسات الموجودة بالفعـل . والممارســة الجديدة الناشئة لابد أن تتجســـد فى مجموعة من العلامات ، تنتهى فيما اتفق على تسميته منذ نشأة النزعة البنيوية (أو التركيبية) structulasime « فناء الانسان»: فنظرية العلامات تقضى بالفعل على الانسان لو أنها اعتزمت مد نشاطها الى جميـــع الأنحاء ، فلو فنى الجنس البشرى لصار العالم خاويا ، والواقع جامدا .

وبهذا المعنى ، كان المشروع الذى أرادت العلوم الانسـانية أن تضـــطلع به بتحكمها فى الممارسات الاجتماعية مشروعا فاشلا بقدر ما هو ناجح : فبعد أن كانت علوما ، صارت أيديولوجية ، أى أنها « تسير على رأسها » كما يقول انجلز Engels ودور الممارس فى مواجهة هذا الوضع هو أن يجعل المركب العلمى ـ التقنى على منأى منه حتى يتفهم ببداهته الواقع الذى يتمثل له ، بثرائه وتنوعه ، وفى وسعه بعـد ذلك أن يقيم استبصاره وملاحظاته فى أطر نظرية اسنادية . غير أن هذه الأطر لا يمكن أن تحل محل القرار الذى يتعين عليـه أن يتخذه ، والذى هو وحـده الذى يضمن لممارسته الاستقلال الذى لا غنى لها عنه .

أخطاء الممارسة

رأينا آنفا أن الممارسة لا يمكن أن تصير مجرد تطبيق للنظرية ، الا اذا قضت على نفسها ، وتنصلت من النظرية . وخشية الوقوع فى هذا الافراط الانتحارى ، قد تنزع الممارسة الى الانطواء على نفسها ، باتباع أسلوب تجريبى منهاجى يجعلهـا تشعر بخطر الالتجاء الى النظرية . هـــذا المذهب التجريبى الذى يعمل جاهدا على الابقاء على الأشياء على ما هى عليه ، محفوف بالتنازلات حيال وضع يفرض ضغوطه ، ويبقى التجريب empeiria أعزل ، لا يفهم مظاهر الواقع المحيرة ، وهو أكثر من ذلك محكوم عليه بأن يتحول سريعا الى « روتين » ، اذا لم تكن النظرية له بالمرصـــاد لاستثارة فضوله ، وتذكيره بأن هناك العديد من المشـكلات العملية التى لم تجـد بعد حلا .

ما هو نموذج الرابطة بين النظرية والممارسة ؟

يتبين لنا فى هذه المرحلة من بحثنا أن وظيفة النظرية ليست التشـــويش على الممارسة ، اللهم الا أن تفقـــد ذاتها ، وانمـــا هى بالأخرى تحـــاول أن تفسر الممارسة لتستبين ما يحدث لها • والنظرية فى العلوم الاجتماعية يدفعها الفضـــول الفكرى الذى يحاول فهم العمل الجارى ، حتى لو كان هذا الفهم محدودا دائمـــا والفهم هنا يستهدف معاونة الممارسة التى تحتاج الى نقاط ترجع اليها فى مســـار عملها ، مثلما تحتاج صياغة النظرية الى نقط للاستدلال تعينها الممارسات المهنية •

وتتضمن كل من النظرية والممارسة منهـــاجين مختلفين ، أى اثنين من نمط praxis ، واثنين من نمط poièsis • ومع أن نمطى praxis منفصلان أحدهما عن الآخر تمام الانفصال ، فان نقطة الاتصال بين النظرية والممارسة قد تحـــدث فى سياق المواجهة بين مستوياتهـــا من ال poièsis : المواجهة بين النتائج النظرية والموضوعات المهنية • هـــذه المواجهة تكون بلا شك محيرة حيثمـــا يرتبط كل Rocés s ال praxis الخاص به ، ولكنها ضرورية اذا كان المطلوب اخصـــابا متبادلا بين النظرية والممارسة •

النظام الأساسى الخليط للتقنيات :

التقنية Techne هى تطبيق المعرفة النظرية على حالة واقعية بقصد تحديد الوسائل الأكثر ملاءمة لبلوغ غاية ما ، وفى هذا المعنى لا توجد تقنيات جيدة وتقنيات رديئة ، انما هناك فقط تقنيات مناسبة بدرجة ما تبعا للظروف والأحوال •

والتقنية ليس لها وجود مستقل عن « طريقة العمل » modus operandi واذا اقترنت بال Poiesis فانها تتجسد فى الناتج الذى تساعد فى صنعه •

اشتقاق التقنيات الاجتماعية :

التقنيات منطقيا تشتق اما من النظرية ، واما من الممارسة العملية ، ومن ثم تربط بين هذين المستويين • والاشتقاقات النظرية قليلة فى الواقع ، نذكر منهـــا بعض الأمثلة : فالتعليم ذو البرامج قد نشأ من أبحاث أجريت فى عمليات التعليم ؟ والتحليل التنظيمى فى أحد مناهجه صدر عن المقابلة بين التحليل النفسى والماركسية• أما الاشتقاقات العملية فانها على العكس من ذلك كثيرة : من ذلك أن تقنية التحليل النفسى قد نشأت اعتبـــارا من ممارســـة طبية (اكلينيكية) ، فبملاحظة التأثيرات « التنفيسية » للتنويم المغناطيسى ، أمكن لفرويد أن يتصور تقنيته الخاصة بتداعى الخواطر ، والانتباه المتردد • وتوصل روجرز Rogers فى أعقاب الخبرة التى اكتسبها وهو أخصائى فى العلاج ، توصل الى تعريف طريقة الحوار غير الموجه ، وهى الأساس فى اعداد مختلف التقنيات غير الموجهة •

وتطورت فى كندا فى الخمسينات « البيداجوجيـــا » (أصـــول التدريس) الموضوعية بفضل جهود مجموعة من المدرسين بتشجيع بلوم Bloom ، اهتموا بوضع معايير موضوعية للتقييم « البيداجوجى » • ونشأ تحليل المضمون فى الولايات المتحدة

الامريكية مع لاسويل Lasswell فى ظروف كان من الضرورى معها ابان الحرب العالمية الثانية معرفة نوايا العدو الخفية ، وموقفه الحقيقى ، وذلك من خلال الدعاية التى كان ينشرها .

ومع أن الاشتقاقات العملية أكثر عددا من النظرية ، فان أى نوع من التقنية لابد عاجلا أم آجلا أن يشكل مضمونه النظرى (كما فى حالة التحليل النفسى) أو يتخذ قاعدة له مضمونا نظريا موجودا من قبل ليضمن تماسكه ومتانته . وعلى هذا اسهمت النظريات اللغوية بقدر كبير فى تطوير تحليل المضمون . معنى هذا أن مختلف النماذج الموجودة لتحليل المقال لا تشبه الأساليب التجريبية لعمليات تحليل المضمون الأولى . والبيداجوجيا الموضوعية فى تطوراتها المختلفة قد ارتبطت بالنظريات السلوكية .

وعلى هذا فان التقنية التى كثيرا ما تنشأ من مشكلات وضعها الممارسون تندمج بالتدريج فى نظريات تعمل بالتالى على اعادة تعريفها .

استخدام التقنيات :

يتعرض استخدام التقنيات لمخاطر أكيدة ، تبعا لميل التقنية الى التجسد الذى ذكرناه سابقا . وتميل التقنية ميلا حتميا الى أن تعتبر نفسها بمثابة غاية ، وتخفى حقيقة أنها ليست سوى وسيلة ، فتتحول من « طريقه عمل » modi operandi الى « سير العمل » opus operatum ، أى من خادم الى سيد .

وكما ذكرنا قبلا ، فى خوض المركب العلمى ــ التقنى ، تميل التقنيات الى غزو ميدان الممارسة العملية ، فى حين أنها ليست فى الواقع سوى مظهر واحد لا يلبث أن يزول بانجاز العمل poièsis .

من أين اذن ، تأتى تلك القدرة على التكاثر والتعميم التى تتمتع بها التقنيات فتفرض نفسها كدعاية رئيسية للممارسة العملية ؟ ذلك أن التقنية بمظهرها المغرى . كأداة ذات بنيان قوى وفعال كثيرا ما تتمثل فى ميدان العمل « حصان طروادة » بالنسبة الى النظرية ، وتعمل باسمها على تنظيم الممارسات تنظيما علميا ومنهاجيا .

طبيعة التقنية ودورها فى العلاقات بين النظرية والممارسة العملية :

لم تزل التقنية ذلك الوسيط بين النظرية والممارسة العملية ، فهى تمثل فى الوقت نفسه الجانب العملى من النظرية ، والأداة الفعالة للممارسة العملية، فطبيعتها مزدوجة بسبب وظيفتها الثنائية .

والتجسيد الأساسى للتقنية يكمن فى رغبتها فى أن تكون مستقلة . وبعيدة عن الارتباطات والممارسات النظرية التى تمثل هى جانبا منها . ومع ذلك فهذا ما يفعله فى الكثير من الأحيان العديد من دورات التعريف بتقنيات فصلت من سياقها وقدمت لجمهور مختلط لا يجمعه مرجع واحد مشترك . ما فائدة « طرق العمل » Mobi Operandi اذا اعتبرت منعزلة ولم تقرن بالممارسة العملية opera operata والممارسة الاجتماعية ، فى هذا الخصوص كثيرا ما تهبط الى مستوى « لعبة الطفل » : فالطفل اذا أعطى أداة ما ، فسوف ترى أن كل شىء يبرر استعماله هذه الأداة .

الممارسة التكنولوجية

وعوائق التثقيف

لا يمكن أن يتولد شيء بذاته ، فالطبيعية تعترض دائما على ذلك ، والنظرية المنعزلة ، والممارسة المكتفية بذاتها لا يمكن لهما الا أن يسفرا عن ايديولوجية ، ونسق مطرد (روتين) على التوالى ، ويتطلب اخصابهما علاقة متبادلة بينهما ، مع احتفاظ كل منهما باستقلاله ٠

ومنطق المعرفة ، ومنطق العمل لا يفترقان : فالمعرفة عمل رمزى ، مستبطن . كما يقول بياجيه Piaget ، يعكس النشاط الآلى على الواقع ، حتى يفهم طبيعته على أكمل وجه ٠ وعلى العكس من ذلك يتحول العمل المتمرس الى معرفة ، معرفة مباشرة ، بديهية ، تحتاج دوما الى مساندة المعرفة الوسطى لاختبار حدودها وصلاحيتها ، والمقاومة التى يبديها لها الواقع ٠ وعلى هذا الأساس تكون الموضوعية . ويتسنى كذلك للعمل أن يحول الواقع ، لا عن طريق الغصب بنوع من « التدخل » التقنى ، وانما ليعيش فى صميم الواقع بتحويله من طبيعة الى ثقافة ٠

وفى مجتمعنا التكنولوجى ، معايشة الواقع ، والانتقال الى وضع الثقافة يقتضيان أولا ازالة كل العمليات المعوقة للتثقيف ، والناشئة عن مختلف آليات الحياة العصرية ٠ ومع ذلك فممارسة العلوم الاجتماعية كثيرا ما تشكل احدى هذه الآليات ٠ أليست المهمة الرئيسية لممارسة العلوم الاجتماعية اذن أن تأخذ فى اعتبارها أول كل شيء نتائج التعويق الثقافى التى لا بد أنها تؤدى اليه ؟

بحث فى الفراغ الاجتماعى :

هدف الدراسة التى أجريناها آنفا هو أن تبين من خلال غموض العلاقات النظرية العملية كيف أسهمت العلوم الانسانية والممارسات التى ولدتها منذ قرابة ثلاثين عاما فى بسط سيطرة العلاقات (أو الدلالات) التى نعرفها فى الوقت الحاضر ٠ وفى هذا الخصوص ، لا يجوز اعتبار مختلف النزعات البنيوية (أو التركيبية) التى ظهرت فى الخمسينات والستينات سببا للمحاولة التى تستهدف تعميم التجسيد المادى ، وانما هى بمثابة التعبير عنها ٠ ونشر المعارف ،والأدوات التقنية ، وظواهر « الموضة » (العادات الدارجة) تشكل كلها العديد من العلامات التى تنظم وتحكم حياتنا العميلة ٠

وحين أؤدى أعمالا تربوية تأهيلية مع الراشدين ، ثم أبقى معهم فى نهاية اليوم نتناول وجبة طعام مسائية ، فانى كثيرا ما أرتاع من نتائج ما قمت به من تعليم : فالحديث يتحول تلقائيا وبأسلوب هزلى الى مختلف التصورات الرمزية التى امتلأ بها اليوم الدراسى ٠ وفى هذا الخصوص يدرك الطلبة ببداهتهم ضعف هذا الضرب من التأهيل الذى يتغيا احالتهم الى ممارساتهم العملية ، ويعلمهم فقط نظاما اضافيا من الرموز يستقر فى طبقة جديدة من ذاكرتهم ، ويتكون من تصورات رمزية تتواتر بالحاح على عقولهم ، وتؤدى فى نهاية العمل اليومى الى اثارة الرغبة فى الهروب من عالم متكلف ٠

هذه العلامات لا تقتل الانسان ، ولكنها تحجب وضعه الوجودى الذى يجد مشقة

فى الظهور . وحتى بعض الأوضاع الخطيرة مثل انتشار البطالة ، تفقد مظهرهـا المزعج بفضل العديد من التقنينات (من معونات مالية ، ودراسات احصائية ، ودراسات اجتماعية ..) التى تعمل على تطويقها .

ان الهيئات والتنظيمات والقوانين تشتغل بصورة ما ، ولكنها تشتغل على أية حال ، انها « تطحن) فى فراغ ، وهى بنوع خاص تشحذ الخيال الذى قد يساعد الفرد والجماعة على التراجع أمام وضعها اذا لم يستطع أى منها أن يسيطر على هذا الوضع .

ولا يحدث شىء ، اللهم الا ظواهر مزعجة لا يستطيع الانسان حيالها أن يفعل شيئا ذا قيمة ، من قبيل العنف المستوطن ، والظلم ، والفاقة ، وسوء التغذية ؛ والعاناة .. ظواهر يبذل الانسان محاولات ليعتبرها أمورا تافهة ، بأمل التغلب على عجزه ومن أمل هذا يستعان بالمركب العلمى التقنى الذى أتاح قبلا الحصول على تقدم كبير ، ولم يزل يفعل ذلك . ولكن ما شأن حياة الأفراد اليومية انها دائما على منوال واحد ، يزيد عليها أحيانا ذلك الشعور بالانزواء فى عالم ملىء بالعلامات التى لا فائدة منها . ولا يسهل فهمها .

اننا نرجو الا يسىء أحدا فهمنا ، فالأمر ها هنا لا يتعلق باصدار حكم على كل ما أنتجته العلوم الانسانية ، ومن بينها النظرية البنيوية (أو التركيبية) . ولكن هذه المنتجات ، على العكس من ذلك تشكل مكاسب لا غنى عنها ، تساعدنا على فهم ما نعانيه فى حياتنا . وفيما يختص بالبنيويه (أو التركيبية) بالصورة التى أورثنا اياها اللغويون والاتنولوجيون ، فانها تمثل جهدا يبذل فى مجال صياغة النظريات. جهدا رائعا فى دقة تحاليله .

كذلك ليس فى عزمنا أن نتهم المجتمع التكنولوجى ، وكل الأشياء الرمزية التى ابتكرها بهذه الأشياء ليست موضع خلاف ولكن الخلاف كما يقول بودريا Boudrillard بصورة ايجابية يتمثل فى علاقة نوثقها بهذه الأشياء ، علاقة نستوعبها من خلال استخدامنا هذه الرموز . وتحبس نفسها فى نظام شفرى بدلا من أن تتفتح على مجال رمزى جديد يتعين اكتشافه ، عندئذ يكف مجال العلاقة عن أن يكون رمزيا بعد أن صار مقننا .

موضع الخلاف اذن هو المحاولة الدائمة لاجراء الانتقال غير الملائم من النظرية الى الممارسة العملية ، بعبارة أخرى . حبس الممارسة العملية ، أية ممارسة ، فى نظام من العلامات (الرموز) يتحكم فى وضعه الفكر النظرى . هذه المحاولة تمثل انحرافا فى الفكر ، من ذلك النوع الذى تصدى له أحد أنصار المذهب البنيوى (التركيبى) وهو لبفى ـ شتراوس . فبعد أن كشف هذا الانثروبولوجى فى مؤلفه Mythologiques (أسطوريات) من خلال دراسته العديد من الأساطير الهند به الأمريكية عن وجود عقل باطن بنيوى يتيح تأويل هذه الأساطير ،نجده يهمل عمله النظرى فى نهاية رباعيته وفى فقرة طويلة رائعة يعيد الى الممارسة العملية حرية ارادتها . وهكذا فبعد أن صرح بأنه « ليس للانسان أن يختار بين أن يكون وألا يكون » يمضى فيواجه طرفى المعادلة أحدهما بالآخر فى ممارستهما التى لا تقبل التجزئة .

« حقيقة الوجود ، التى يشعر الانسان فى أعماقه بأنها الشىء الوحيد القادر على أن يضفى علة ومعنى لتصرفاته اليومية ، وحياته الأدبية والوجدانية ، واختياراته

السياسية ، وارتباطاته بالعالم الاجتماعى والطبيعى ، ومشروعاته العملية ،وغزواته العلمية ، هذه الحقيقة هى فى الوقت نفسه حقيقة اللا وجود ، التى تصاحب ببداهتها حقيقة الوجود ، صحبة وثيقة ، اذ يتحتم على الانسان أن يعيش ويكافح ، ويفكر ويؤمن ، ويحتفظ بشجاعته ، دون أن يفارقه ذلك اليقين المضاد بأنه لم يكن فيما مضى موجودا على وجه الأرض ولن يكون موجودا – أبدا وأنه باختفاءه الحتمى من على وجه الأرض التى مصيرها هى أيضا الفناء ، يغدو كده ، وآلامه ، وآماله ، وأفراحه ، وأعماله كأنما لم يكن لها وجود ، طالما أنه ليس هناك شعور ولا ذكرى لهذه الحركات الزائلة (المهم الا من خلال سمات قليلة سرعان ما تمحى من وجه عالم يبقى بعدها جامدا) شعور وذكرى يؤكدان ذلك الزعم الباطل بأنها كانت موجودة ، فهى اذن لا شىء « ·

انه تمزيق صعب بين الوضع النظرى والأداء العملى ، وهو مع ذلك الاختيار المحتمل الوحيد ، اذا أريد أن يبقى الانسان ثابتا فى وضعه المزدوج ، الرمزى والعملى ·

وقد سبق التأكيد مرارا على مثل هذا الانفصال ، ونشير فقط الى المقابلة المشهورة التى أجراها م · فيبر M. Weber بين رجل العلم ورجل السياسة : فهما يؤديان نشاطين اجتماعيين ، الأول يتولى صياغة النظرية ، والثانى يضطلع بالادارة البراجماتية وهما نشاطات لا ينتقص أى منهما الآخر ·

والجدير بالذكر أن هذا الانفصال يثير العديد من المشكلات التى لم تدرس الا قليلا ، نذكر منها مشكلتين : أولا المشكلة الخاصة بالتباينات المقبولة التى لا تجعل المجالين ، مجال النظرية ، ومجال الممارسة العملية متناقضين ، وهناك فى هذا الخصوص تباينات مثلى تتيح للتفكير النظرى والممارسة العملية الشعور الطبيعى بأنهما يتعرضان لتحديات فى وظيفتهما ، ومن ثم يشعران بما يحفزهما · غير أن هناك متباينات أخرى ، مدمرة للأفراد والجماعات حين تصبح خطرة ·

هذه المشكلة الخاصة بالتباينات المقبولة تحيل من الوجهة النفسية الى مشكلة التنافر · هذا التنافر مهما كان مزعجا فلا بد من ادراجه فى ثقافة تبحث دائما عن مزيد من الترابط من خلال كل آليات المنهج العقلانى التى فى حوزتها · المطلوب اذن ، هو التعرف على هذه العلاقة بين النظرية وبين الممارسة العملية على أنها متنافرة دون محاولة الاقلال بافراط من هذا التنافر بوسيلة أو أخرى ·

وبهذا الثمن ، يستطيع المجال الاجتماعى الى حد ما أن يستعيد كثافته ، وبالتالى تعقده ، ولن يتصور أو يفهم فى بعده الواحد (٣٢) ، ولكن فى كل تنوعاته التى يتعين على الصياغة النظرية أن تتولى فهمها · وبهذا المعنى ، اذا كانت طبيعة كل نظرية ، طبيعة اختزالية ، فالواضح أن الممارسة العملية سوف تكون لها الكلمة الأخيرة حيثما تتخطى كل التصورات التى يمكن أن تعمل عنها ·